الأستاذ أبو الحسن الندوي وإسهاماته في أدب الأطفال

أبو ذر
السنة الأولى للماجستير
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة علي كره الإسلامية

لقد أنجبت أرض الهند شخصية متعددة الجوانب ومتاكملة المناحي، يعتز بها الأدباء ويغتبط بها العلماء في القرن العشرين. وهو شخصية الشيخ أبو الحسن الندوي، رزقه الله المواهب الجياشة للكتابة والخطابة والقدرة التامة على التعبير عن مشاعره وأحاسيسه. فمما لا شك فيه أنه من أعظم أدباء المعاصرين وأبرز كتاب الناشئين، وأعلام المفكرين والدعاة الإسلاميين. قد جمع الله في شخصيته الصفات العديدة والمؤهلات المختلفة في مجال العلم والأدب. فكان أديبا أريبا وخطيبا مصقعا وكاتبا قديرا في جانب، وفي جانب آخر كان قائدا حكيما وداعيا إسلاميا وسياسيا محنكا ومدبرا عظيما وحالما لنهضة الأمة الإسلامية عربا وعجما. وهذه هي الصفات التي تميزه عن الآخرين، كما إنه يفوق أقرانه بما كان لديه من المؤهلات العلمية والفنية ليس في شبه القارة الهندية فحسب بل في العالم العربي أيضا.

وإنه نشأ وترعرع في أحضان أم كانت ربة البيت في النهار وعبدة الله في الليل ولسانها رطب بذكر الله، ولأجل ذلك كانت هيبة الإسلام وعظمة الدين تترسخ في قلبه وتثبت في ذهنه حتى أن الرياح المتمردة لو كانت تهب على محوه من قلبه فما استطاعت. كأن الإسلام قطب يدور حوله رحى حياته الإسلامية ومحور لأفكاره وهدف أعماله ونصب عينيه وغاية لياليه وأنهاره. رتع وتجول للدعوة إلى الإسلام وإعلاء كلمة الله العليا ويترشح ذلك كله في كتاباته الفنية ومحاضراته العلمية ورحلاته الدعوية.

وفي هذه العجالة السريعة والمقالة الموجزة نحاول أن نعالج قضية أدب الأطفال عند الشيخ أبي الحسن علي الندوي في ضوء ما كتبه في هذا النحو. فما من شك في أنه أول من عنى بأدب الأطفال في الهند لتربية الناشئين المسلمين على عقيدة التوحيد ولترسيخ قواعد الإسلام في أذهانهم معرضا أمامهم حقائق تاريخ الإسلام وحضارته السنية وحوادثه ومحنه لغرس جذور الإيمان في قلوبهم وتثبيت تأثير الدين الحنيف وانطباعاته في أكبادهم. وأراد بذلك أن يبعدهم عن الانحرافات الدينية والنزعات الطائفية وأن يهديهم إلى الطرق المهدية من خلال الأدب. فكان أكبر العوامل من وراء كتابة قصص للأطفال هو ما شاهده من ابن أخيه محمد يطالع كتب القصص التي تحوي على قصص السنانير والكلاب والأسد والذئاب والقردة والدباب. فقال في مقدمة كتاب قصص النبيين في الجزء الأول، "أراك حريصا على القصص والحكايات وكذلك كل طفل في سنك تسمع هذه القصص بكل رغبة وتقرأها بكل رغبة ولكني أتأسف لأني لا أرى في يدك إلا

حكايات السنانير والكلاب والأسد والذئاب والقردة......"وأضاف فيه، "فرأيت أن أكتب لك ولأمثالك أبناء المسلمين قصص الأنبياء والمرسلين بأسلوب سهل يوافق سنك وذوقك ففعلت"(1).

شمر أبو الحسن الندوي عن ساق الجد لهذا العمل الجليل فمضى به وألف كتاب قصص النبيين في أسلوب أدبي رصين ينسجم طبائع البراعم فذاع صيته في أرجاء العالم ونالت سلسلة "قصص النبيين" القبول الحسن والتقدير الجزل بين الأوساط العلمية والأدبية في العالم العربي وخارجه. يحلو لي أن أذكر هنا ما كتبه سيد قطب شهيد بعد قراءة قصص النبيين إشادة وتعريفا، "ولقد قرأت الكثير من كتب الأطفال-بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلواة والسلام- وشاركت في تاليف مجموعة "القصص الديني للأطفال" في مصر مأخوذا كذلك من القرآن الكريم ولكني أشهد في غير مجاملة أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي بين يدي جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر حين تستقر في قلوب الصغار والكبار"(2).

فلا غرابة في أن الأطفال لبنة أساسية في صرح المجتمع والبلاد، ويلعب دورا هاما في تكوين المجتمع مجتمعا مثاليا إذا يتربى على قواعد صحيحة متوافقة دين الإسلام لأن أشبال اليوم شبان الغد، وبراعم اليوم قادة الغد، وإنما هم همزات الوصل بين الحاضر والغابر. فمن الحقيقة لا تجحد أن يترقى الأمم التي تعتني بتربية أشبالها وبراعمها وتنشئتها أشد الاعتناء، وفي تعبير بليغ كأن الأطفال سر من أسرار الرقي والازدهار ويتعلق الوجود والبقاء للقوم والبلاد بناصيتهم، فلا يصلح آخر الأمة إلا إذا صلح أولها. والتاريخ حافل بكثير من مثل هذه الوقائع. فوقف الشيخ الندوي من خلال مطالعة الأمم من عروجها وانحطاطها على هذا الجانب الخطير المهم الذي لا يزال في حاجة ماسة للمعالجة إلى هذا اليوم فعالجه مدى المعالجة ووضع اليد على جرح نزيف الدم تعانيه الأمة الإسلامية من مدة مديدة. فسد هذه الثغر بقيام أدب الأطفال التي ما زالت تبتقي خالية من مثل هذه الآداب بوجه عام.

القصة عند الشيخ الندوي

اعتمد الشيخ الندوي على القصص لعرض الأفكار كثيرا لما كان فيها إمتاع الوجدان وأثر عميق لا يمحو آثارها إلى زمن. إن أدب الأطفال هو أساس الأدب وغذاءه الحقيقي القصة بل هو أدب الأصيل الذي لا يشوبه شيئ، فمن طبائع الأطفال أنهم يتشوقون إلى استماع القصص والأساطير ويتطلعون إليها لأنها كانت تسبب الفرح والسرور ويشعر الطفل الناشئ التمتع والتذوق إذا يصغي آذانه إلى استماعها. فيصمت الطفل في مهد الأم بعد أن كان يسمع ترنيمة أو أنشودة من لسان أمه، فكأن أدب الأطفال يبتدأ من اللحظة الحنونة ويرتقي بارتقاء سن الطفل. لذلك اختار الندوي رحمه الله القصة في عرض الأفكار لا من القصص السنانير والدباب كما كانت شائعة بين الأطفال في الحقبة من الزمن بل

اختار قصص تحفل بغذاء روحاني وعقلي والإيمان الصادق والتضحية والتوحيد الخالص وحنان الأب لولده ومصطبغة بصبغة إيمانية ثابتة والتفاني في سبيل الله ودروسا عبرا تخلف ارتسامات عميقة في قلب الناشئ وتغرس جذور الإيمان الدافق في فؤاد المراهق فلم يمح أثره حتى أن كان ينضج فكره وقبل أن تعكره الفلسفات العالية والأفكار الناضجة.

أشار الأستاذ واضح رشيد الندوي إلى ما كان يتميز به قصة الشيخ أبي الحسن الندوي من سعة الآفاق والبراعة الحسنة قائلا: "إن قصة أبي الحسن علي الندوي تجمع بين الغرض الفني والغرض الديني والتربوي والعلمي في وقت واحد، وهو كاتب للأطفال كما هو للكبار أيضا، وله مهارة جيدة وبراعة حسنة في تصوير المآسى والأفراح وقلما يوجد في مثل هذه الانتاجات الأدبية والقصصية الأخرى، وخير دليل على سعة آفاق قصصه أن الشيخ عبدالماجد الندوي صرح أن كتابه قصص النبيين علم كلام جديد يستسيغه ذهن الأطفال فضلا عن تعليم اللغة والأدب"(3).

كما أن الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي ألقى الضوء على أسلوبه الجميل الساحر الأخاذ قائلا: "ففي الجزء الأول من سلسلة "قصص النبيين" دعا الشيخ الندوي الناشئين إلى أن يجتمعوا حوله ليقص عليهم قصة طريفة كأنه يقول، "تعالوا يا أبنائي أحك لكم قصة لرجل كبير، كان في زمن قديم، قديم جدا فالتف حوله الأطفال راغبين في سماع القصة والاستمتاع بها فبدأ يقص عليهم بأسلوبه الجميل الممتع الذي يتجلى فيه حبه للأطفال وشفقته عليهم واعتناؤه بتوجيه درس مفيد نحوهم وكان الأطفال كلهم قد أصغوا آذانهم وأصبحوا أذنا واحدة صاغية، وإذا به يبدأ القصة بأسلوب الساحر الأخاذ"(4). وليتبين أسلوب الندوي إليك هذا المقتبس من قصص النبيين،

"قبل أيام كثيرة، كثيرة جدا، كان في قرية رجل مشهور جدا، وكان اسم هذا الرجل آزر، وكان آزر يبيع الأصنام، وكان في هذه القرية بيت، بيت كبير جدا، وكان في هذا البيت أصنام، أصنام كثيرة جدا. وكان الناس يسجدون لهذه الأصنام وكان آزر يسجد لهذه الأصنام وكان آزر يعبد الأصنام"(5).

وكان يريد أن يرجع بالطفل إلى مبدأ تاريخ التوحيد ورجل له أصداء هائلة في مجال التوحيد الحنيف، فهو سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام وهو مظهر من مظاهر الدين السمحاء، فثبت أمام أبيه المشرك صمود الحجر أمام السيل الجارف فهذا كله يؤثر على الطفل الناشئ ويترسخ عقيدة التوحيد في قلبه.

التربية الإسلامية:

أراد الشيخ الندوي من خلال أدبه للأطفال التربية الإسلامية والتنشئة الدينية مما جعلته إنسانا مثاليا يحمل في ثناياه المثل العالية والقيم الخلقية وذلك يتجلى في كل ما كتبه من الكتابات وإلقاء المحاضرت وأحب أن يعرض الأدب الإسلامي الهادف بعيدا عن الأدب العالمي السائد الخالي عن الروح الديني، فانتقد على ذلك وحاول اقتلاع جذوره

الثابت وبدله من الأدب الذي ينطوي على المعاني النابضة من القلب الإسلامي والفؤاد الديني فجعل يكتب ويحرض أصدقاؤه وأقرباؤه على تأليف نصاب يكون خير بديل عن النصاب الشائع في أقطار العالم العربي ومن أهم أغراضه التربية الإسلامية للناشئين وتغيير أذهانهم إلى تاريخ الإسلامي التليد وتعويدهم على اعتناق قواعد الدين الإسلامي.

الدعوة إلى الإسلام:

كان الشيخ الندوي داعية ربانية ومربيا جليلا ولم يخل أي لحظة من لحظات حياته القيمة من عمل الدعوة، فقد ألزمها على نفسه سفرا وحضرا حتى أصبحت أولية الأعمال عنده. فجعل في قصصه مناخا للدعوة يعيش الطفل في حرارتها المناسبة إذ يعتبر الشيخ الندوي أن الدعوة هي هدفا رئيسيا وغاية منشودة للحياة الأدبية ويبدو هذا من خلال استعراضه في الأعمال الأدبية كتابة وخطابة ويفوح أريجها من خلال الأسطر التي تدفقت من قلمه لأنه كان على معرفة جم أن الدعوة الصحيحة إلى الإسلام هو الشيئ الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ العالم المقهور المطمور عن مجاهل الشرك وغياهب الظلمات التي تغشاه. فالأهمية تتزايد إذا كانت الدعوة للبراعم الناعمة الذين أكثر الناس قبولا وإيجابا لما يقدرون على قبول ما ورد على قلوبهم الصغيرة من توجيهات رشيدة وإرشادات حسنة، إضافة إلى الكبار وأصحاب ذوي الأفكار الناضجة.

فيحس الطفل أن المعاني متحركة تتجول على الأرض إذا يقرأ القصة، لأنه كان يعرف أن هذا الطفل هو اليوم شبل وغدا هو داعية. تبين للطفل من خلال قرائته مختلف النماذج للدعوة من الأنبياء والرسل وأبطالنا المسلمين الذين يتجمل بهم التاريخ الإسلامي المضي.

اللغة: وكان للشيخ أبي الحسن علي الندوي مهارة تامة ولباقة حسنة وقدرة عجيبة على اللغة العربية. كأن اللغة العربية لعبة يتلاعب بها فاستطاع عليها أن يعبر عما يجول في خاطره بأسلوب سهل رصين وتدل على ذلك إنتاجاته الأدبية والفنية الرائعة، فكتب في جانب كتاب "ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" في أسلوب علمي يطلب الصبر والدقة والتعمق وفي جانب آخر نزل على مستوى الأطفال فبدأ يكتب قصص النبيين للأطفال والقرأة الراشدة في أسلوب يلائم أعمار المراهقين والناشئين يبعد عن المسائل الفقهية والعلمية المزعجة مما يميزه عن جميع الأدباء والبلغاء فاعترفه أدباء العرب وأشاده علماء العرب. فمن أهم ميزاته اللغوية في أدب الأطفال:

التكرار: نجد في عدة مواطن تكرار الكلمات وأحيانا تكرار الجمل فمثلا يقول الشيخ في الجزء الأول، "كان في هذه القرية بيت، بيت كبير جدا وكان في هذا البيت أصنام، أصنام كثيرة جدا"(6) وقصد بذلك تعليم الأطفال بوجه عام وتعليم اللغة وترسيخ الجمل في أذهانه.

مراعاة نفسية الأطفال وصغر سنهم: إن الشيخ الندوي عندما يذكر في كتابه قصة نوح عليه السلام ويذكر صنعه السفينة ويبين كيف سخر الناس به فيقص استهزائهم بتعبير هو أقرب من التعبيرات التي يستعملها الأطفال فيما بينهم في مثل هذه المواقف. فلنر كيف يكتب "ما هذا يا نوح؟ من متى صرت نجارا؟ أما كنا نقول لك لا تجلس إلى هؤلاء الأراذل؟ ولكنك ما سمعت كلامنا وجلست إلى النجارين والحدادين فصرت نجارا. وأين تمشي هذه السفينة يا نوح؟ إن أمرك كله عجب، أتمشي هذه في الرمل أم تصعد الجبل؟ البحر من هنا بعيد جدا وهل يحملها الجن أم تجرها الثيران؟"(7).

ويجدر بنا الذكر هنا ما كتبه الشيخ الشرباصي مدرس جامعة الأزهر في سلسلة "قصص النبيين" للأطفال، "إنه يحقق غرضين كريمين، الأول منهما إمداد البيئة المسلمة بما تطمح إليه من غذاء روحي وعقلي، يرضي العواطف والمشاعر ويهذب الأخلاق والطبائع والثاني تمكين قواعد اللغة العربية في صدور هذه الشبيبة وتوثيق الصلة بالقرآن الكريم ولغة الحديث ولغة التاريخ الإسلامي" ويوضح أسلوب المؤلف قائلا: "اضطر المؤلف أن يبسط الحديث ويختار من الجمل أيسرها وأهونها، مجاراة منها لمستوى الأطفال الذين سيقرؤن هذه القصص، كما اضطر إلى التكرار في مواطن كثيرة لأنه لا يسرد قصة فحسب بل يعلم مع ذلك لغة، وتعليم اللغة يحتاج إلى الإعادة والتكرار حتى تثبت الألفاظ وترسخ التعابير"(8).

ونختم هذه المقالة الموجزة على ما كتب السيد واضح رشيد الندوي مبرزا لميزاته التي انفرد بها الشيخ أبي الحسن الندوي في كتابه "قصص النبيين" فيقول: "وبهذا الاعتبار كان سماحة الشيخ الندوي رائدا للأدب الإسلامي للأطفال ومنشأ لمدرسة جديدة في القصة بالإضافة إلى بحوثه وأفكاره وإسهاماته العلمية للعقلاء والمثقفين الكبار وأصحاب الفكر الناضج وأدبه أدب طبعي خالص فيه إبداع وابتكار وتوليد المعاني وتحليل الوقائع وفتح للأذهان ودعوة إلى التفكير والتدبر وهو أول كاتب للأطفال في اللغة العربية في الهند بهدف ومبدإ وبتعبير سيد قطب الشهيد أنه أنجح كاتب في القصة الإسلامية ليس في الهند فحسب بل في العالم الإسلامي"(9).

المصادر:

- قصص النبيين للأطفال، أبو الحسن علي الندوي، مؤسسة الرسالة بيروت،1996م، الجزء الأول، ص6-7
- المصدر السابق، ص4
- المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الندوي، جمع وترتيب، السيد واضح رشيد الحسني الندوي، مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية لشبه القارة الهندية، 2004م، ص170
- المصدر السابق، ص131-132

- قصص النبيين للأطفال، أبو الحسن علي الندوي، الجزء الأول، ص9
- المصدر السابق، ص9
- المصدر السابق، ص9
- المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي، السيد واضح رشيد الحسني الندوي، ص168
- المصدر السابق، ص170